

هى لله !!

وقف جعفر بن سليمان مذهولاً جائراً ، يتطلع ذات اليمين فلا يرى غير إبل كثيرة ، ويتطلع ذات الشمال فلا تقع عيناه إلا على إبل كثيرة ، لا يكاد يحصى عددها ، أخذت ترعى فى واد رحيب ، يضيق بها ضيقاً شديداً ، على اتساعه ورحابته ، وامتداد أطرافه ونواحيه . .

أخذت هذه الإبل ترعى الكلاً والعشب ، طليقة مرحة ، تبدو عليها علام الصحة والقوة ، والسلامة والفتوة ، وكأنما بينها وبين المرض عهد وميثاق ، ألا يقربها فى يوم من الأيام ، أو يسىء إليها ، أو ينالها بشرماً ، أو يعيبها من قريب أو من بعيد . . !!

وما أجمل هذا اللون من النعم ، حينما يتكاثر فى صحة وقوة ويتدافع بين الحين والحين فى سيره تدافع الموج ، يفيض بالخير ، ويفرق الإنسان فى جو جميل من الطمأنينة والشكر لله ، على هذا الفضل العميم . .

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ، وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ . وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ . وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ » .

وأخذ جعفر بن سليمان يردد هذه الآيات ، خشية أن ينزع الشيطان فى قلبه نزغاً ، يكون من ورائه الشر ، فتصيب عينه هذه الإبل المرحة ، فتسوء العاقبة ، وهم لا يرحو ذلك ، ولا يهدف إليه ، وإنما يتمنى ، من صميم

قلبه ، وسويداء فؤاده ، أن تبقى هذه الثروة العالية ذخراً لصاحبها ، كما هي سليمة نامية ، صحيحة قوية . .

ولكن لمن هذه الثروة ؟ لمن هذا الكنز القيم ؟ لمن هذه الإبل الكثيرة الوفيرة ، التي هي نخر العربي ، يهيم بها حبا ، ويعتبرها دائماً أقصى أمانيه ، ومنتهى آماله . . أقصى ما يتمناه من متاع ، ومنتهى ما يأمله من مال ، فهو لا يدين بالدرهم والدينار ، ولا تأسر صفرة الذهب ، أو رنين الفضة قلبه ، كما يأسره أطيط الإبل ، وتدافعها في الوديان كالسيل الغامر ؟ !

لمن هذا الوادي الرحيب ، الذي يموج بالإبل ، يرتفع لها في الجو أطيط ، يحرك أوتار القلوب العربية الصميمة ، ويدفع بها في محيط كله النشوة الآسرة . . هذه القلوب التي تقدر هذا النوع من الحيوان قدره ، وتعرف له منزلته ومكانته ، وتعرف كذلك كيف تنتفع به انتفاعاً عظيماً ، يدر عليها وافر المال ، وطائل الربح الخلال ؟ !

لمن هذا كله ياترى ؟ ألعدة أشخاص ينعمون به ، ويجعل منهم أغنياء أثرياء ، لا يزاولون عملاً من الأعمال سوى إشرافهم على هذا الوادي العامر الجليل ؟ أم لشخص واحد لا غير ، يكفيه ليكون سعيداً ، ناعم البال ، أن ينظر إليه عند ما تشرق الشمس ، أو عند الأصيل ، وقد تهيات الإبل للراحة والهدوء ؟ يكفيه ذلك ليكون أسعد السعداء ، وبخاصة إذا كان من الذين يعرفون واجب الله في المال ، وحق الفقير والمسكين . .

وبنت مخاض ، وحققة ، وجذعة . . ليت له من جميع هذه الأنواع ، التي تدير رأسه بمنظرها الساحر الفتان ، لا يعدله منظر في الدنيا ، بحال من الأحوال . .

ثم أية سعادة كاملة تلك التي يشعر بها صاحب هذا الوادي العظيم ، وأية هناءة غامرة ترفرف عليه ، وتملك عليه نفسه وعواطفه ، وتجعله يعيش في بحبوحة من الرفاهية والنعيم ، لا يشعر بما يشعر به البائس والفقير ، وتبعده عن هموم الدنيا ، وأحزان العالم ، وترفعه في أعين الناس درجات ودرجات ؟ !

ليته يسعد بواد كهذا الوادي ، على أن يبارك الله لصاحب هذه النعم فيما أعطاه ، وأن ينمي له ما تفضل به عليه ، فهو مسلم دون ريب ، عرف حق الله في المال فأخرجه إلى مستحقه من فقراء ومساكين ، فربت أمواله وكثر ثوابه ، وعم خيره وإحسانه ، حتى أمن آفات القلوب المحرومة ، والأفئدة المكلومة ، والبطون الجائعة ، والجسوم العارية ، ولولا هذا ، ولولا رضا الفقير والمساكين ، لما رضى الله عليه ، ولما بارك له فيما أعطى ، وحفظ عليه ما وهب له . .

وما كاد جعفر بن سليمان يفيق من نشوة المال وحبه ، وسيطرته على القلوب ، كائنة ما كانت ، حتى رأى شبحاً من بعيد ، جالسا على ربوة مرتفعة

لقد أسرع جعفر يعدو نحو هذا الشبح ، فإذا به أعرابي من المسلمين ،
تبدو عليه سمات التوكل ، والاعتماد على الله ، إلى أبعد حد ، وأقصى غاية ،
وتظهر عليه دلائل الرضا والقناعة ، وأنه شخص بعيد عن الدنيا ، ، لاحظ
له فيها ، ولا نصيب له منها ، فهو يرتدى ثيابا لا تختلف عن ثياب الرعاة
في قليل ولا كثير ، ولكن إشراق وجهه ، وتقرح جفنيه ، وما هو فيه من
تفكير عميق في خالق السموات والأرض ، كل هذا يبعث في نفس محدثه
الرهبة والجلال ، واحترام هذه النفس السامية ، ذات الروحانية الفياضة ،
والنورانية الغامرة . . !

وقف جعفر بن سليمان أمام هذا الأعرابي ، وسأله في رقة وأدب
كبيرين ، وقد بدت عليه علام العجب والدهشة :

— لمن هذه الإبل ؟

ولكن الأعرابي لم يجب ، وظل ساهما مفكراً ، لا يعرف كيف يتحدث
ولا بماذا يجيب . . إن هذا السؤال كان ينبغي ألا يسأل ، لأنه يدل على
جهل فاضح بحقيقة الأشياء ، أو على الأقل يدل على انصراف عن الحقيقة
الثابتة التي يجب ألا تغيب عن ذهن أى إنسان كأننا ما كان ، ألا وهى
الاعتراف بالله رباً لكل شيء ، وخالقاً لكل شيء ، ومالكاً لكل شيء ،
للإنسان والحيوان ، والنبات ، والكون بأسره سمائه وأرضه ، أفلا كـ

منه وما سيوجد فيما بعد ، ما علم وما لم يعلم ، وسع علمه كل شيء ، وأحاطت قدرته بكل شيء . . فما بال هذا السائل يغفل عن هذه الحقيقة الثابتة ، التي يجب ألا تغيب عن الأذهان ، مهما طغت عليها المادية الجارفة ، والحيوانية المارقة ، والبهيمية المدمرة ، والشهوانية الطاغية . وإلا فلا قيمة لشخص كائننا ما كان ، يغفل عن هذه الحقيقة الناصعة ، التي تضيء في كل قلب ، وتشع في كل فؤاد ، وكأنما تنبه إليها الأذهان والعقول على الدوام . . لا قيمة لأي شخص نسي خالقه وبارئه ، خالق الكون كله ، أرضه وسمائه ، بحاره وأنهاره ، نجومه وأفلاكه ، حيوانه ونباته ، سهوله وجباله ، وهو مالك هذا كله دون ريب ، بيده حياته وموته ، وإيجاده وإعدامه ، فكيف يغفل الإنسان عن هذه الحقيقة ، وكيف يشغل بما لا يصح أن يشغل به ، ولا يجوز أن يغفل عنه ؟ !

ما أحقر الدنيا ، يتكالب عليها طلابها ، تكالب الكلاب على الجيف ، ويتناحرون عليها تناجر الوحوش المجنونة على فرائسها ، دون أن يكون للعقل قيمة ولا مجال . .

يا لله ! إنه سؤال عجيب ، إن دل على شيء فلا يدل إلا على ظلمة القلب ، وانطماس البصيرة ، وسذاجة الفكر ، ثم هو بعد هذا دليل على الغفلة عن الحق ، والبعد عن الله ، وما أحراه بعدم الإجابة عليه ، والانصراف عن قائله ، والإعراض عن سائله ، حتى يشعر بخطئه ، ويعود

ولكن الإعراض عن الناس ، والانصراف عنهم ، ليس من شيم رجال الله وأحبابه . . إن الغافل يجب أن يوقظ وينبّه ، والجاهل يجب أن يفهم ويعلم ، وإلا خلق الله سبحانه وتعالى الناس جميعاً في درجة واحدة من العلم والمعرفة ، وعلى قدم واحدة من القرب منه ، والإخلاص له ، والإقبال عليه ، وما ذلك على الله بعزيز ؟ !

حقاً يجب عليه أن يرشد السائل إلى الطريق المستقيم ، والصراط السوى ، وأن يفهمه الحقيقة الناصعة التي غفل عنها ، وأن يعلمه أن العبد وما ملك لله الخالق الأكبر ، وأن صفات الملكية والامتلاك والملك والمالك لا يتصف بها في الواقع ونفس الأمر إلا الله ، فهو المالك الحقيقي لجميع ما في الكون الصامت منه والناطق ، والساكن والمتحرك ، وأن من تمام الإيمان وكمال الإسلام : ألا ترى لنفسك بجانب ربك ومولائك سلطة بها تملك أو تتحكم ، لتعيش مطمئن القلب ، راضى النفس ، منشراح الصدر ، قدير العين ، فكل شيء من الله ، وإلى الله ، وليس لك في هذه الحياة نفوذ كائن ما كان إلا بإذن الله وأمره .

وكان جعفر بن سليمان لا يزال ينتظر الجواب على سؤاله ، وآلمه أن يُعرض عنه الأعرابي مفكراً إلى هذا الحد ، وخشى أن يكون قد نسي سؤاله ، أو لم يسمعه جيداً ، فقال له ثانية في عزم وصراحة ولوم :

فقال الأعرابي في اقتضاب وإخلاص :

— هي لله في يدي . . . ! !

.....
.....
وبهت جعفر بن سليمان ، وتملكته نشوة عجيبة ، وروحانية غامرة ،
وانقض على يد الأعرابي يقبلها ، وعلم أنها الحقيقة الناصعة ، غفل عن
إدراكها ، وكان من الواجب أن يذكرها على الدوام . . . ! !